المحاضرة الثامنة: النقد عند طه حسين.....الجزء 01.

1. تلقى طه حسين التعليم الديني بكتاب القرية والأزهر، فأتاح له هذا النوع من التعليم فرصة التمكن من الدراسات الإسلامية والعربية. ثم التحق بالجامعة المصرية عند أول إنشائها، وكان أول الأمر يختلف إليها وإلى الأزهر معا، فيستمع لدروس الأزهر نهارا، ويستمع لدروس الجامعة مساءا. وكانت دراسته في الجامعة دراسة مدنية متحررة لا سيما في الأدب العربي ونقده، وقد بقي بها حتى نال العالمية ولقب دكتور في الآداب عام 1914م قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى.

وهنا نستطيع أن نضع أيدينا على أول إنتاج أدبي نقدي أسهم به طه حسين إسهاما فعلا في نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر، وهو كتابه "ذكرى أبي العلاء" الذي نال به الدكتوراة، وسنحاول أن نتعرف في هذا الكتاب مذهبه في النقد في تلك المرحلة الأولى من مراحل حياته الأدبية.

على أن اتجاه طه حسين النقدي، بدأ منذ كان طالبا في الأزهر، ولكنه تخلى على ذلك الاتجاه إلى اتجاه آخر بمجرد التحاقه بالجامعة. وهو يحدثنا عن اتجاهه الأول، وعن مذهبه في الأدب والنقد حين كان يتلقى دروس الأدب على أستاذه سيد بن علي المرصفي الذي لزمه وعمره ست عشرة سنة أي منذ عام 150م، إلى أن بلغ العشرين من عمره، وقد تأثر بمذهب أستاذه هذا تأثرا واضحا أول أمره، فكان لا ينظر إلى الأدب إلا بمثل منظاره، ولا يقيسه إلا بمثل قياسه. وقد أوضحنا من قبل مقياس المرصفي هذا في دراسة الأدب ونقده.

وبما أن مذهب سيد المرصفي كان يدعو للأخذ بمذاهب القدماء، ونبذ مذاهب المحدثين فقد دعا طه حسين وزملائه للإعراض عن دراسة مسلم ابن الوليد وأبي تمام والمتنبي والمعري وأضرابهم ممن تكلفوا البديع أو تعمقوا درس الفلسفة أو تأثروا بالثقافة اليونانية ونحوها.

ولكن لما التحق طه حسين بالجامعة، وجد فيها من دعتهم من المستشرقين للتدريس بها من الإيطاليين والفرنسيين والألمان، فدرس عليهم الأدب بمذهب جديد يختلف كل الاختلاف عن مذهب أستاذه المرصفي، وكان هؤلاء المستشرقون يلقون دروسهم هذه باللغة العربية الفصحى، ولكن مع شيء من التواء الألسنة بها، بل كانوا إذا خاضوا في أي حديث ما خاضوا فيه بلغة معربة فصيحة.

وقد ترك الأستاذ نلينو المستشرق الإيطالي في نفس طه حسين أثرا لا ينساه، فهو استاذه الذي تلقى عليه الأدب، ووجهه الوجهة الحديثة فيه، كما أنه لا ينكر فصل أستاذه المرصفي الذي تلقى عليه الأدب بالمنهج القديم، ولذلك فهو يقول: « إني مدين بحياتي العقلية كلها لهذين الأستاذين العظيمين: سيد علي المرصفي الذي كنت أسمع دروسه وجه النهار، و "كارلو نالينو" الذي كنت أسمع دروسه آخر النهار، أحدهما علمني كيف أقرأ النص العربي القديم، وكيف أفهمه، وكيف أتمثله في نفسي، وكيف أحاول محاكاته. وعلمني الآخر كيف أستنبط الحقائق من ذلك النص، وكيف ألائم بينها، وكيف أصوغها آخر الأمر علما يقرؤه الناس،

فيفهمونه ويجدون فيه شيئا ذا بال. وكل ما أتيح لي بعد هذين الأستاذين العظيمين من الدرس والتحصيل في مصر وفي خارج مصر، فهو قد أقيم على هذا الأساس الذي تلقيته منهما في ذلك الطور الأول من أطوار الشباب. بفضلهما لم أحس الغربة حين أمعنت في قراءة كتب الأدب القديم، وحين اختلفت إلى الأساتذة الأوروبيين في جامعة باريس، وحين أمعنت في قراءة كتب الأدب الحديث». وهو فوق ذلك يرى أن دروس نلينو في الجامعة المصرية القديمة كانت هي الموجه الأول للنهضة العلمية في دراسة الأدب في مصر، إما مباشرة إما عن طريق تلاميذه فيما بعد.

ومذهب المستشرقين هذا مذهب يشترط في دارس الأدب وتاريخه أن يدرس جيده ورديئه معا، وأن يتقن علوم اللغة وآدابها، ويلم بعلوم الفلسفة والدين، ويتقن دروس التاريخ، وتقويم البلدان، كما يتقن دراسة أصول اللغة القديمة ومصادرها الأولى، كما يتقن أيضا دراسة علم النفس للأفراد والجماعات، ودراسة الآداب الغربية الحديثة، ومناهج البحث عند الإفرنج، وما كتبه المستشرقون عن الحضارة العربية والإسلامية، على ان كل ذلك له قيمته في تمكين الباحث من الدراسة الصحيحة للأدب وللأمة العربية خاصة، والأمة الإسلامية عامة.

فهذا المنهج منهج مبني على الموازنة بين الآداب قديمها وحديثها، لأنه يرى أن الحياة الإنسانية تتشابه وتتقارب مهما تختلف عليها الظروف، ومبني على الاستنباط ودراسة العوامل المؤثرة في الأدب، لأنه يرى أن الأدب مرآة لحياة عصره ومنشئيه، فينبغي دراسة الحياة التي سبقته فأثرت في إنشائه، والتي عاصرته فتأثرت به وأثرت فيه، ثم التي جاءت في إثره فتلقت نتائجه وتأثرت بها. وهذا هو مذهب برونتيير الذي يقول بتدرج الأنواع، ويخضع فنون الأدب وأنواعه لنظريات النشوء والارتقاء، كمذهب أصحاب التطور من أنصار دارون، وهذا المذهب الأدبي يريد أن تدرس المؤلفات والأفكار والفنون على أن كلا منها متأثر ومؤثر في آن واحد، وعلى ذلك فالصلة قائمة بين الأدب والأديب من جهة، وبين الأديب وبيئته وعصره من جهة أخرى، فإن كانت حياة الأديب لا تفهم إلا متأثرة بالجماعة التي يعيش فيها، فهذا الأديب إذن ظاهرة اجتماعية، وعليه فإن أدبه الذي صدر عنه ظاهرة اجتماعية أيضا.

وعلى ضوء مذهب المستشرقين غير طه حسين رأيه في كثير من حقائق التاريخ الأدبي كما سيأتيك توضيحه، كما أنه غير أيضا مذهبه القديم في النقد، ولم يبق منه إلا دقة النقد اللفظي، والحرص على إيثار الكلام إذا امتاز بمتانة اللفظ ورصانة الأسلوب.ولكنه مع ذلك يرى ألا غنى عن دراسة المنهجين، القديم والحديث معا، فبينما يقوى المنهج القديم ملكة الإنشاء وفهم الآثار العربية التليدة، يعين المنهج الحديث على حسن استنباط التاريخ الأدبي من هذه الآثار. ولقد استطاعت الجامعة أن تجمع بينهما فجعلت درسا مستقلا للأدب. عهدت به لحفني ناصف والشيخ محمد المهدي، وآخر مستقلا لتأريخه عهدت به للأستاذ جويدي ثم الأستاذ نلينو فالأستاذ فييت. فكان المنهج الأول يبحث في أسرار البلاغة ومواطن الجودة

والعيب في الأثر الأدبي، وكان الثاني يبحث في استنباط الحياة العربية من أدبها، والعوامل المختلفة التي أثرت في هذا الأدب. ولكن الجامعة قد أخفقت بعد الحرب العالمية الأولى في دعوة المستشرقين، واضطرت إلى إسناد دراسة الأدب وتأريخه لأستاذ واحد هو الشيخ محمد المهدي، فرجعت بدراسة الأدب إلى عهده السابق ومنهجه القديم، ثم لم توفق، بعد، لاستئناف ذلك الأسلوب القيم. على أن الشيخ محمد المهدي نفسه لم يكن من أنصار القديم في كل شيء، بل كان يزدري أنصاره المغالين، كما أنه أيضا كان يتبرم بالغلاة من أنصار الجديد، فكان يتخذ مذهبا وسطا بين الفريقين، لم يسلك فيه سبيل القدماء الذين يجعلون مؤلفاتهم أشبه بالموسوعات، ولم يتخذ فيه هذه المذاهب الحديثة في تأريخ الأدب ونقده.

2. هذا ما كان من منهج الدراسة الأدبية في الجامعة المصرية القديمة، ونعود الآن بعد إجمال القول فيه إلى ما كنا بصدده من اتجاه النقد عند طه حسين، فقد قلنا إن باكورة إنتاجه الأدبي التي تهمنا هي كتابه "ذكرى أبي العلاء"، وقد انتهج في هذا الكتاب منهج أساتذته المستشرقين في دراسة الأدب وتأريخه، وكان الكتاب بذلك أول كتاب، بل أول بحث أدبي، يظهر للناس في الآداب العربية على منهج حديث، وخطة جديدة مرسومة، وهو يقول عن منهج بحثه في هذا الكتاب: « جعلت درس أبي العلاء درسا لعصره. واستنبطت حياته مما أحاط به من المؤثرات. ولم أعتمد على هذه المؤثرات الأجنبية وحدها، بل اتخذت شخصية أبي العلاء مصدرا من مصادر البحث، بعد أن وصلت إلى تعيينها وتحقيقها. وعلى ذلك فلست في هذا الكتاب طبعيا فحسب، بل أنا طبعي نفسي، أعتمد فيه ما تنتج المباحث الطبعية ومباحث علم النفس معا». ولم يقتصر طه حسين على ما وضحه في قوله هذا، بل استعان في بحثه بالمنطق أيضا. وعليه فمنهجه تاريخي شخصي، وفني كذلك بدراسته وتحليله لآثار أبي العلاء. وقد سلك هذا المنهج في دراسته لهذا الشاعر ولغيره من الشعراء الذين درسهم بعد ذلك في العصر الجاهلي وغيره، مع التفاوت في الإطالة والتفصيل والإجمال.

وطه حسين يعتبر مذهب الجبريين الذي طبقه تين على الأدب في فرنسا، يعتبره اساس الدراسة الأدبية، ويعتبر بقية المناهج معينة له ومساعدة، إذ أن الحياة الاجتماعية تتخذ ما تتخذ من أشكالها المختلفة بتأثير العلل والأسباب التي لا دخل للمرء فيها، فالحادثة التاريخية أو القصيدة الشعرية أو نحوهما أثر من آثار هذه العلل، فهي جميعها لإذن تخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء، فترد بذلك إلى أصولها ومصادرها الأولى، ولذا لا يعتبر الفرد مستقلا بعمل ما، إذ أن عمله هذا بعد نتيجة لعوامل اصطلحت عليه، فهو ظاهرة اجتماعية أو كونية، فلا ينبغي أن يضاف لشخص من الأشخاص، أو يحمد عليه شخص بعينه أو يذم.

وتين ومن تبعه في المذهب الجبري يرون أن الأدب والأدباء ثمرة طبيعية لعلل ثلال هي الجنس، والزمان، والمكان، فينبغي أن تفهم هذه العلل أولا، ليفهم الأدب بعد ذلك، ويرد إلى مصادره الأصلية.

وقد سار طه حسين في بحثه على منهجه الذي رسمه، فدرس أولا عصر المعري، ووضح مكانه بين العصور، ثم درس مميزات الشعب الذي نشأ بينه المعري أو امتزج به، ودرس حياة عصره السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية والخلقية والعقلية، ثم درس موطنه الخاص، معرة النعمان، فحقق اسمها وبين موقعها ووصفها، ثم انتقل لحياة المعري الخاصة، فدرس قبيلته وأسرته ومولده واسمه ولقبه وكنيته وذهاب بصره وتربيته وتعليمه وموت أبيه ورحلته لبغداد. وهكذا سايره في جميع أطوار حياته واتجاهاته إلى وفاته واحتفال الناس برثائه. ثم انتقل إلى درس أدبه المتأثر بالعوامل المتقدمة، فتحدث عن ديوانه "سقط الزند" وعن شعره في أطواره الثلاثة: طور الصبا، وطور الشبيبة، ثم طور الكهولة والشيخوخة، وتحدث عن أغراضه في هذا الشعر من مدح إلى فخر إلى غيرهما. ثم انتقل إلى "الدرعيات" و "اللزوميات". ثم عالج نثره كذلك في أطواره المختلفة في "رسالة الغفران" وغيرها على النحو الذي عالج به شعره. وأخيرا انتقل إلى الحدث عن مكانة المعري العلمية، واختتم الكتاب بالإفاضة في فلسفته واتجاهاتها.

وتعرض طه حسين في دراسته للمعري لمعايبه ومحاسنه، في جميع شعره ونثره فما أخذه عليه في شعر صباه: الإحالة، والتقليد، وكثرة المبالغة، وكثرة التكلف والصنعة، وقلة المتانة، ومن ذلك تعليقه على بيت المعري:

ونادبة في مسمعي كل قينة تغرد اللحن البريء من اللحن

علق عليه بأن هذا المعنى وإن كان جميلا فإنه يبدو غير ناضج في هذا البيت مع ما فيه من جناس متكلف، وبديع مصطنع، وأن المعري قد أدى نفس هذا المعنى عندما نضج عقله فقال:

أبكت تلكم الحماة أم غنـ ـت على فرع غصنها المياد

ثم أشاد طه حسين بما في البيت الأخير من جمال وإبداع.

وأما شعر المعري في شبيبته فيقول إنه تغلب عليه المبالغة، وقلة التكلف، والقرب من المتانة، وصحة التمثيل لعواطفه، ولو أنه كان في هذا الطور أيضا حريصا على التقليد والاحتذاء، وكان احتذاؤه للمتنبي واضحا لا سيما فيما جعله الأساس الأول لفلسفته في الموت. وقد قلت المبالغة عنده في أخريات شبيبته، كما اقتصد في اللفظ والمعنى، وحفل بالاصطلاحات العلمية. وله في طوريه الأول والثاني ألفاظ وأساليب جاوز فيها المقيس من قواعد اللغة، فانظر إليه كيف سكن لام الفعل مع ان، وكيف وضع أن بعد كاد في قوله:

شجا ركبا وأفراسا وإبلا وزاد فكاد أن يشجو الرحالا

هذا، والعرب تجيز مثل هذه الضرورة على قلة.

ومما أخذه على نثره في طور شبابه كثرة التكلف أيضا وقلة المتانة، وكثرة السجع والمبالغة، والاحتفال بالغريب والمصطلحات العلمية.

أما شعر طوره الثالث ونثره، فقد تميز بقلة التكلف للبديع وقلة المبالغة، وكان كلاهما يمثل شخصية صاحبه بصدق، وينحو منحى الفلسفة والحكمة وأخذ النفس بالشدة في كل شيء.

ولقد تكلف المعري في لزومياته ما لا يلزم من قيام القافية على حرفين، فاصطنع لذلك الغريب، وعابه بعضهم بهذا التكلف، ولكنه لم يأت بما يلام عليه عند طه حسين إذ يراه لم يقصد باللزوميات أن تكون ديوان شعر، إنما أرادها أن تكون كتاب فلسفة، والمعري نفسه يقول إن كتابه لا يسير على مذاهب الشعر، لأنه حق خالص، وهذا لا يلاءم الشعر، ولأنه كذلك لم يلجأ فيه إلى الخيال الذي يعتمد عليه الجمال الشعري.

ويعتذر له طه حسين أيضا بأن هذا التكلف القليل في الكتاب لا يجعله معيبا، وأن لجوءه فيه للغريب والإيماء والإلغاز إنما قصد به تعمية بعض آرائه.

ولكن طه حسين أخذ على المعري بوجه عام في جميع شعره ونثره كثرة الغريب، وغموض أغراضه، حتى لا تكاد تفهم ما يعنيه، ثم مدحه بأنه متميز بالعفة المطلقة في لفظه.

وأما مقاييس طه حسين النقدية التي استخلصناها من هذا الكتاب فهي:

(أ) رأيه العام في الكلام من شعر ونثر، حيث رأى أن يتميز الجيد منه بأن تكون ألفاظه مألوفة غير مبتذلة ولا نابية، وأن تكون مطابقة لمعناه، فالرقة في موضعها، والقوة في موضعها، ثم يطابق معناه أيضا غرضه، ويسلم الكلام في جملته من التكلف الممقوت والصنعة المرذولة، وتتسم صوره العقلية والخيالية بالدقة والجودة.

(ب) -(1) ومما رآه في الشعر خاصة، أن الشعر الصادق هو الذي يمثل شخصية صاحبه وعواطفه، ويكون ساميا إذا استطاع أن يبلغ من القلب الحساس موضع التأثير حتى لو لم يستعن بالخيال، كقول المعري لمن فارقهم بالعراق:

أثارني عنكم أمران: والدة لم ألقها، وثراء عاد مسفوتا

وهذا يعني أن تكون العاطفة قوية صادقة، وأن يشترك العقل والقلب معا في النظم، ومن خير الأمثلة لذلك أيضا رثاء المعري لأبي حمزة في قصيدته التي بعدها خير قصيدة عربية في الرثاء، وهي قصيدته:

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد

(2) ووصف طه حسين القصيدة الرائعة بأنها تتميز بشدة الأمر، وإحكام التركيب، وصفاء الرونق، وجمال الأسلوب، وصدق التعبير. وهذا الصدق يستوجب ألا يلجأ الشاعر إلى تكلف البديع والغريب أو محاكاة الفحول أو تعمد إظهار العلم والمقدرة. ومثل هذا التكلف هو ما بدا واضحا في رثاء المعري لأبيه بقصيدته:

نقمت الرضا حتى ضاحك المزن فلا جادني إلا عبوس من الدجن

ولذلك جاءت هذه القصيدة خالية من الدلالة على حزن الشاعر، لأن التكلف فيها واضح في الفكرة وفي التعبير وفي العاطفة، إذ الصورة التي مثلها مطلع القصيدة متكلفة ولا تعبر عن نفس حزينة، والصورة التي أوردها في قوله:

فليت فمي إن شما سني تبسمي فم الطعنة النجلاء تدمي بلا سن

هذه الصورة متكلفة أيضا، ولا تدل على حزن. وكل ذلك يدل على تكلف البديع والوان التشبيه والميل للإغراب.

(3) والفكرة التي يحاول الشاعر تصويرها ينبغي أن تكون صحيحة، ليست بعيدة عن الحقيقة.ففكرة المعري في بيته "نقمت الرضا" ليست دقيقة، وكما يقول طه حسين إن من عدم الدقة في البيت ان السحاب الضاحك ليس احق الأشياء بالرضا حتى يكون الانصراف عنه دليل السخط البالغ، كما أن الشاعر لعماه لا يدرك جمال هذا السحاب حتى يؤثر فيه الرضا عنه والابتهاج به.

.....

.....يتبع.....